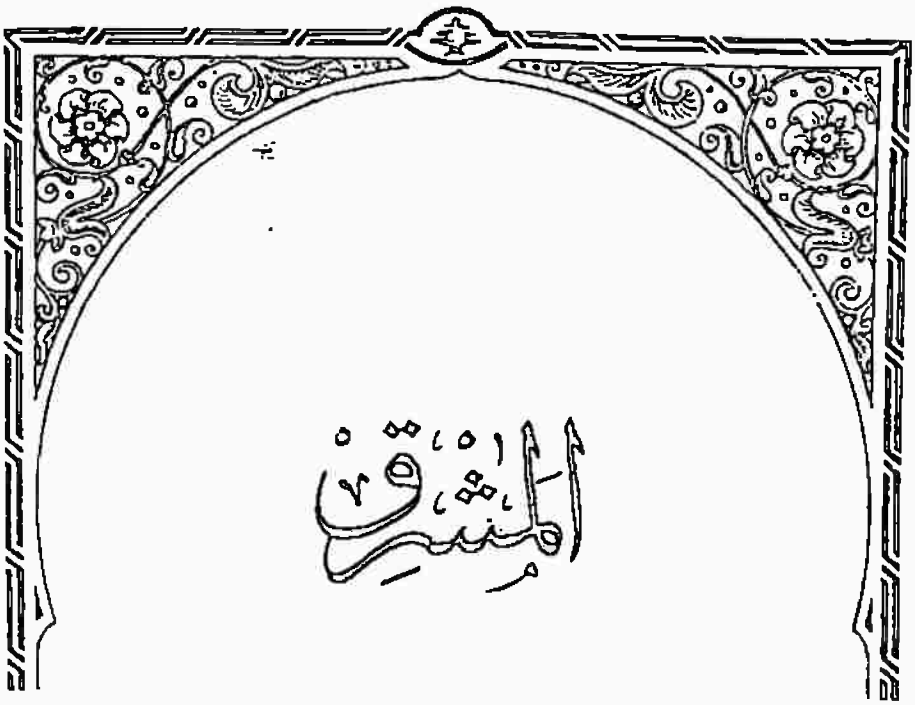

السنة السادسة والاربعون

تموز - آب ١٩٥٣

تاريخ الدول السرياني

تأليف ابي الفرج الملطيّ (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

بعد المستظهر المسترشد ابنه

تولّى سبع عشرة سنة وثمانية شهور . ولمّا بويع بالخلافة حطم خوابي خمر وافرةً كانت لابيه وأتلفها . وطرد المطربين والمطربات من البلاط . ورأى أباه في الحلم يقول له : أخرجني من عندك لئلّا آخذك اليّ . فاضطرب ونقله ودفنه في مكانٍ آخر . وجعل يبدي التصوّف . وكبس دار المحامي ابي طاهر ابن احمد وعثر فيها على بيعة بما فيها من آنية المذبح وقال له : ما هذا ؟ فقال: كانت لي زوجة نصرانيّة صنعت ذلك دون معرفتي.

وفي السنة ٥١٢ للعرب (١١١٨م) احتلّ (٢٨٢) حرّان الامير ايلغازي بن ارتق وأوثق شيوخها المشاهير وقاضيها . وكان صاحب حلب قد سبق فدفع لرجير صاحب انطاكية ذهباً وافرًا ولم يقدر ان يهادنه الّا اربعة اشهر فقط ريثما أقبل الحصاد ورُفعت البيادر فعاد رجير الى حلب وحاصرها فاستغاث الحلبيُّون بالامير ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين فحشد سبعة آلاف تركيّ واقبل يناوش الفرنج حتى كسرهم وقُتل رجير في المعركة وانهزم سائر الفرنج الى انطاكية . فزحف اليها الاتراك واحتلّوا ضواحيها وفتكوا برهبان كثيرين في الجبل الأسود . وبلغ بغدوين الثاني ملك اورشليم ما صار فتتبّع الاتراك . وكان كمناؤهم قد اجتاحوا الرجّالة الفرنج وانقضّ عليهم وبطش بهم قاطبة . ثم عاد يريد ايلغازي واستنقذ الغنيمة من يديه ورجع بها الى انطاكية . وذكر البطريرك ميخائيل المغبوط ان غازي بن دنشمند هو الذي كسر الفرنج وقتل رجير . ولعلّ تشابه الاسمين اوقعه في الخطأ والغلط .

وفي هذه السنة احتلّ صاحب ملطية بلد جيحان وابلستين وقلعة قطيعة . وفي شباط تلك السنة غزا الفرنج بلد ملطية وغزا الاتراك بلد جرجر . وغزا صاحب ملطية بلدة قاح فسار صاحبها الى طرابزون واستغاث باليونان فبعثوا معه القائد جبراس . فناوشه صاحب ملطية وبلك وظفروا به واعتقلاه فدفع لهما ثلاثين الف دينار وعاد الى وطنه . وانتزع ايونيّ ملك قسطنطينية ثلاثة حصون من الاتراك . وأحرق ايلغازي غلّات بلد الرها . وغزا ضواحي انطاكية . ومات طغتكين صاحب دمشق وخلفه ابنه فحمل عليه التنطاش التركيّ وبطش به وتولّى مكانه .

وفي السنة ٥١٥ للعرب (١١٢١م) انتقض الملك مسعود في الموصل على اخيه السلطان محمود دون موافقة الامير زنكي . وحشد الجيوش ونازل اخاه السلطان فكسره السلطان وقبض عليه واوثقه بالأغلال . وولّى الامير برسقي بلاد الموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين وبعثه اليها .

وارسل ملك قسطنطينية اليوناني في تلك الحقبة الى ايلغازي بن ارتق يقول : ان جماهير غفيرة من الفرنج خرجوا من البحر الى سورية فيجب ان

نستمدّ لمقاتلتهم . واذا احتجتَ فاني منجدك بثلاثين الفاً . فسار ايلغازي وسدّ الموانئ واجهز على الكثيرين من الفرنج وتقهقر البقيّة الى فروجية . وتمّ ذلك بدسيسة اليونان المكّارين.

وكان ارمن جرجر يتلصّصون يومئذٍ في اطراف حصن زياد وبولا وملطية فأرسل بلك الامير التركيّ الى ميخائيل الارمنيّ صاحب جرجر يعده بان يؤدي له كلّ سنة الف حمل حنطة وثلاث قرى من قراه بشرط ان يمنع اصحابه عن التلصّص. فأقسم له ميخائيل في ذلك غير مرّة ولكنّه حنث في قسمه فكانت الحنطة تصل اليه ولصوصه يواصلون احراق القرى في هتزيط . وعند ذلك عبر بلك جليد الفرات الى جوبلس في شباط وكانت الثلوج متراكمة في الجبال فوجّه الف حصان قطعت جبل قريونا الشاهق وشقّت الثلوج فسارت الجيوش التركيّة ووصلت في يوم واحد الى دير برصوما . وفي تلك الليلة شق الاتراك جبل الجدار في جرجر وانقضّوا صباحاً على ملطية المنكودة الحظّ وغزوا ضواحيها يوم الاثنين اوّل كانون الثاني ١٤٣٢ لليونان (١١٢١ م) واجتاحوا الاهالي والبهائم وانطلقوا . وأشفق بلك على الفلّاحين المسيحيّين وترك لهم مالهم كلّه وذهب بهم الى هتزيط وشدّد عليهم الأمر بان لا يعودوا الى جرجر والّا فانه متى اقبل ثانيةً الى تلك النواحي فلن يشفق عليهم.

وفي السنة ١٤٣٣ لليونان (٢٨٤) (١١٢٢ م) وجّه السلطان محمود جيشاً ضخماً من الاتراك الى بلد الكرج فأوصد الملك الثغور وفتك بالكثيرين منهم. وغزا جوسلين الفرنجيّ بلد جوبلس . وفي هذه السنة مات ايلغازي بن ارتق.

امّا جوسلين فبعد وفاة امرأته اقترن بابنة رجير صاحب انطاكية واراد ان يأخذها معه الى الرها . لكنّ بلك اقام لها كمناء قبضوا عليها ومضوا بها الى بولا . وتخلّى ميخائيل الارمني للملك بغدوين عن جرجر على اثر تغلّب الاتراك عليه واكتفى بموضع آخر.

وفي السنة ٥١٧ للعرب (١١٢٣م) شخص ابن شهرزوريّ قاضي الموصل الى بغداد وأدّى للخليفة خمسة آلاف دينار واحتلّ غربي دجلة كلّه من حدود الموصل حتى البصرة.

وكان الفرنج في السنة ١٤٣٤ لليونان (١١٢٣ م) مخيّمين في شاطئ نهر سنجا فانقضّ عليهم كين بلك الامير التركي ونارشهم وقبض على الملك بغدوين يوم الاربعا من اسبوع البياض . وتأهب القسّيسان جوسلين وغالران كل الصيف لمنازلة الاتراك حتى تلاقى الجيشان في ايلول . فانكسر الفرنج واعتُقل القسّيسان ليلة عيد الصليب وسجن بلك ثلاثتهم في جبّ بقلعة خرتبرت وهي حصن زياد . ولمّا عرف بعض الحَمَلة الارمن ان ليس في القلعة الّا القليلون احتشدوا في بابها يتذمّرون بسبب اجرتهم . ثم وثبوا وانتزعوا ما هناك من السيوف وفتكوا بالحرّاس الاتراك . وسارعوا الى الجبّ فانتشلوا الملك بغدوين وجوسلين وغالران واجهزوا على العرب واحتلّوا القلعة . ثم احتال جوسلين فغادر القلعة ليلًا مع رجل ارمنيّ وذهب ليأتي بجيش يحتلّ القلعة ان تيسّر او ينقذ الملك بغدوين . غير انه ما كاد يخرج جوسلين (١ ٢٨٥) حتى وصل بلك وصوّب المنجنيقات نحو القلعة واحتلها وقتل سبعين من الفرنج والارمن . واخذ الملك بغدوين وابن اخته غالران ومضى بهما الى منبج وحاصرها فرماهُ احدهم من السور بسهم قضى عليه وانهزم عساكره الى حلب وولّوا تيسورطاش ابن عمّه زعامتهم فباع الاسيرَين بمائة الف دينار . وعاد بغدوين الى اورشليم . وتولّى حصن زياد سليمان نسيب بلك وتولّى صاحب ملطية مسارا وجرجر .

وظهر نجم ضخم طوله من الجنوب الى الشمال . وعرضه كرقبة حصان وظلّ مدّة شهرين .

ويوم الجمعة ١٣ حزيران ١٤٣٥ لليونان (١١٢٤م) انقضّ على ملطية الامير غازي بن دنشمند صاحب سبسطية واجتاح ضاحيتها كلّها وحصر المدينة شهرًا واحدًا . ثم ترك في قرية سامان ابنه محمّدًا مع جيش كثيف وأمر بمتابعة الحصار دون ان يَدَع احدًا يدخل المدينة او يخرج منها . وكان عَرَب صاحبها غائبًا يتلصّص بلد دنشمند ويجتاحه . وتفاقم جوع الملطيّين حتى بيع قفيز الحنطة اعني حمل الجحش بستّة وثلاثين دينارًا ذهبًا . وفي القوت اخيرًا بلغ وجعل الاهالي يبلّون الجلود الليّنة وغُلَف الكتب والأحذية ويسلقونها ويأكلونها . واضمحلّت السنانير والكلاب والحمير اضمحلالًا تامًّا . هكذا انتابت ملطية

التاسعة ثلاث ضربات أليمة : السيف يفتك بكل من يغادرها والجوع يجتاح مَن في داخلها وايزابيل الثانية امّ السلطان التي فرّت من الموصل تشدّد على الاعيان لتسلبهم الذهب وتنهزم او تجتاحهم قاطبةً وتنطلق .

وظهرت يومئذٍ نجوم تتساقط من السماء .

وحين ذاك تحنّن الربّ (٢٨٦) على خاصة المسيحيّين فارتحلت تلك الملعونة مع ابنها ليلة الاربعاء عاشر كانون الاوّل ١٤٣٦ لليونان (١١٢٥ م) ودخل الامير غازي وشاهد البقيّة الباقية كأنّها خارجة من القبور بسبب الجوع. وأبدى للجميع كلمة التشجيع والتسلية وأعطى الفلاحين حنطة ليزرعوها واستحضر البقر والثيران والاغنام حتى انتعشت المدينة .

وذكر البطريرك ميخائيل المغبوط ان الخليفة المستظهر مات في هذه السنة وخلفه ابنه المسترشد . ولعلّه اخطأ في روايته بسبب اختلاف سير اعوام العرب القمريّة واعوام اليونان الشمسيّة .

وفي السنة ١٤٣٧ لليونان (١١٢٦ م) فتك الفرنج في كفرطاب بصاحب حماة واحتلّوا جبلة وشدّدوا على صور حتى وصلت مراكب البندقيّين الفرنج واقبل ملك اورشليم الى مساعدتهم واحتلّوا المدينة بعد معارك طاحنة.

وحشد الملك عَرَب جنوده وحمل على اخيه مسعود سلطان قونية لاتّفاقه مع ابن دنشمند . فانهزم مسعود الى قسطنطينية ورحّب به ايوني ملك اليونان ترحيباً جميلاً واعطاه ذهباً وجيشاً كثيرًا فخرج قاصدًا غازي ثم انطلقا معاً يريدان عَرَب فانهزم عرب الى بلد تورس الارمنيّ صاحب قيليقية.

وفي السنة المذكورة ظفر عشرة اسحميليّين على آقسنقور برسوق أمير الموصل وهو في مسجدها الكبير القديم فنهض وبطش بثلاثة منهم ثم حمل عليه بقيّتهم وقتلوه . وخلفه عزّ الدين مسعود ابنه في الموصل وجزيرة قردو وما بين النهرين وحلب وحماة وغيرها . وعاش سنةً واحدة ومات . وخلفه اخوه الصغير يناظره الامير جاولي التركيّ احد عبيد ابيه برسوق . وهذا جاولي ارسل أبا الحسن عليّ بن شهرزوريّ قاضي الموصل وصلاح ياجوبساني بمثابة سفيرَين الى السلطان

في بغداد تأييداً لابن برسوق الصغير في الولاية . غير انهما قالا للسلطان : ان الموصل في حاجة الى رجل (٢٨٧) منجّد في الحرب يستطيع مناهضة الفرنج الذين زعزعوا العرب جميعاً . وأشارا الى اتابغ زنكي بن قاسم الدولة آقسنقور وكان شحنةً في واسط وبغداد . فوافقهما السلطان وكتب له فرماناً ووجّهه الى تلك المدينة . فمرّ ببلدة بيت وازيق واحتلّها ولمّا بلغ الموصل بعث جاولي الى الرحبة وولّى صلاح ياجوباني حراسة القلعة ونصب ابن شهرزوري قاضياً على الموصل وملحقاتها يخلفه في القضاء نسله على كرور الزمان . وتولّى زنكي كذلك الجزيرة واربيل وسنجار والرحبة وحلب وحماة وحمص.

وفي السنة ١٤٣٨ لليونان (١١٢٧م) أقتتل غازي وعَرَب كذلك فانكسر عَرَب ولحقه غازي وابتزّ خيامه وانطلق الى قرمانة وانقرة وحاصرهما حصاراً شديداً حتى احتلّهما وأخرج محمّداً ابنه وكان ملك عَرَب قد حبسه هناك . ثم حشد عَرَب الجيوش ثانيةً وزحف يريد غازي فانكسر وانهزم الى بلاد اليونان وضاع خبره .

وفي السنة المذكورة أقبل من رومية بوهيمند بن بوهيمند الفرنجيّ ووصل الى انطاكية وتولّى امرها . وثار خلاف بين الفرنج فغزا جوسلين ضواحي انطاكية كلّها . فسخط عليه بطريركهم وأغلق ابواب الكنائس وأبطل قرع النواقيس والصلوات ريثما ردّ جوسلين الغنيمة بأسرها .

وفي السنة ١٤٣٩ لليونان (١١٢٨م) قرّر الحلبيّون ان يؤدّوا لجوسلين كلّ عام اثني عشر الف دينار خوفاً منه لئلا يضيّق عليهم . واذ ذاك أغوى بعض اتراك حلب فريقاً من طبّاخي الفرنج ودفعوا لهم ذهباً فسقَوا جوسلين وستّة من فرسانه سمّاً قضى على حياة الستّة وصانت العناية الالهيّة جوسلين وعالجه الاطبّاء حتى تعافى فقتل الذين سقوه السمّ وفتك باولادهم جميعاً .

وفي هذه السنة سار طغرل ارسلان الى ملطية (٢٨٨) وكانت قد انتُزعت من يده فغزا اطرافها الخارجيّة وانقلب وضاع خبره .

وفي السنة ١٤٤٠ لليونان (١١٢٩م) وصل جوسلين الى آمد وغزا التركمانَ والاكرادَ في جبل آشوم ونهب قرى آمد حتى بابها .

وفي السنة عينها بلغ زنكي ان السلطان ينوي ان ينصب دُبيس زعيم المزيديين اميرًا بدلًا منه في الموصل . فانحدر الى بغداد وتذلل له وأدّى له مائة الف دينار وتوسّل اليه ليؤيده في مكانه . وقدّم للخليفة هدايا وافرة كي لا يَدَع لدُبيس مكانًا يتولّاه البتة. وكان قد جرى بين الخليفة ودُبيس وقائع كثيرة حتى انضمّ الى السلطان وازدراه وسار الى بغداد وجعل يركب غاديًا رائحًا مطمئنًا مستحقرًا الخليفة . ولمّا مرض السلطان سرق دُبيس ابنَه الصغير وانهزم فغزا الكوفة والبصرة والحلّة وحشد ذهبًا وافرًا وضمّ اليه عشرة آلاف فارس مضى بهم الى البرّية . وقس على ذلك حيَلًا جمّة لا يسع هذا المؤلّف الوجيز استقصاءها فاضربنا عن سردها . وقيل انه في عراكٍ جرى بين الخليفة ودُبيس انكسر دُبيس وسقط اصحابه جميعًا وأفلت وحده وعبر الفرات على ظهر حصانه . فشاهدته عجوزٌ معدّية وقالت له بطمأنينة : هل حضرت يا دُبَير ؟ اعني يا تاعس الحظّ . فتبسّم دُبيس ولم يسخط عليها وقال لها : ان التاعس الحظّ هو من يتغيّب ولا يحضر !

ودارت رحى الحرب في هذه السنة بين الفرنج والاسمعيليّين واجتاح الفرنج منهم زهاء عشرة آلاف واحتلّوا ما كان بيدهم من الحصون الكثيرة في فينيقية. ووقع رعب الفرنج في قلوب عرب سوريّة جميعًا . وسار الفرنج الى دمشق وضيّقوا عليها ثم فرضوا على اهاليها عشرين الف دينار في السنة جزيةً وتركوهم (٢٨٩) وانصرفوا. واستولى الفرنج في تلك الاثناء على جميع البلاد من ماردين وشبكتان حتى عريش مصر. ولم يبقَ للعرب في سوريّة الّا حلب وحماة وحمص ودمشق تؤدّي باجمعها الجزية للفرنج . فكانوا يأخذون من حلب نصف غلّاتها حتى من الرحى التي بباب الجنائن . ووجّهوا وفودًا الى دمشق أحصوا كلّ من فيها من العبيد النصارى ونقلوا كلّ من لم يشأ الاقامة مع العرب دون ان يدفعوا شيئًا من الاثمان لمواليهم. ووصلت جيوش الفرنج الى آمد ونصيبين وراس العين . وأمسى اهالي الرقّة وحرّان بسببهم في ضنكٍ شديد. وتعذّر على العرب السفر من المشرق الى دمشق الّا في طريق البادية.

وفي السنة ١١٤١ لليونان (١١٣٠م) مات تورس والي قيليقية وخلفه لاون

اخوه وناوشه بوهيمند الفرنجيّ صاحب انطاكية.

وفي ٨ اذار السنة عينها وهي السنة ٥٢٤ للعرب حدثت زلزلة عنيفة في بغداد قوّضت مساكن كثيرة . وظهرت في الموصل سحابة كثيفة صبّت وابلاً من الامطار تبعتها جمرات نارية هائلة هبطت من الجوّ الى الارض واحرقت دوراً شتى مع اثاثها .

وفي هذه السنة سار قسيانس الزعيم اليونانيّ يريد غازي بن دنشمند وسلّه حصوناً كثيرة في بلاد البنطس وتولّى قبدوقية باجمعها وحشد جيوشاً كثيفة وزحف الى قيليقية ليغزوها . وحدث ان بوهيمند صاحب انطاكية دخلها من ناحية اخرى دون ان يشعر احدهما بصاحبه . وعند ذاك اشتعلت الحرب بين الاتراك والفرنج وظلّ لاون الارمني قابعاً لم يتعرّض للخصمين . فتغلّب الاتراك واجهزوا على بوهيمند يجهلون انه الملك . امّا لاون فأغلق الثغور تجاه الاتراك وفتك بكثير منهم .

وفي السنة ٥٢٥ للعرب (١١٣٠م) قبض صاحب دمشق على دُبيس المعدّيّ وأوثقه وبعثه الى زنكي (٢٩٠) صاحب الموصل واسترجع ابنه المأسور لديه.

وفي السنة ١٤٤٢ لليونان (١١٣١م) اقبل ملك اورشليم الى انطاكية وجاء اليها كذلك جوسلين من الرها فأغلق الانطاكيّون الابواب في وجههما حتى أبرما بقسم ان تبقى المدينة لابنة بوهيمند ريثما تترعرع وتتزوّج فيكون زوجها خلفاً لوالدها في انطاكية .

ودخل الامير غازي بن دنشمند قيليقية ودوّخ بعض الحصون . فتدخّل له لاون الارمنيّ وحالف ان يمنع لصوصه عن العبث في بلده . وان يؤدّي له الجزية سنةً فسنةً . لكنه أخلف في قسمه ثانيةً ولم يؤدِّ له شيئاً .

وسار اسحق اخو ملك اليونان الى قيليقية وزفّ ابنته الى لاون المذكور واعطاه المخيصة وآطنه بدلاً من جهازها . ثم حصل بينهما نزاع وانهزم اسحق وابنه الى بلد سلطان قونية .

وتوفّي جوسلين وخلفه في الرها جوسلين الثاني . وفي تلك السنة غادر السلطان محمود مدينة بغداد وتوجّه الى خراسان . فاقبل اليه مسعود اخوه

واستعطفه وحمل امامه غطاء السرج فتلاثما. وولّاه السلطان محمود شؤون البلاد والعساكر وركب الى همذان ومات هناك بالثامنة والعشرين. فثارت الخصومة بين داود ابن السلطان محمود وبين مسعود وسلجوق شاه وطغرل وكان طغرل مع الملك سنجر عمّهم. وارسل الثلاثة الى الخليفة يطلب كلّ منهم السلطنة لنفسه. فوافق الخليفة اوّل بدء على سنجر وبعث الى البقيّة يقول: فليأتِ اليّ مَن يوافق عليه ويدفع له كتاب الرضى فاقبله انا كذلك. ثم كتب الى سنجر يقول: اننا لن نزيد غيرك ولن نسمح لاحد ان يتسلّط دونك. ولمّا بلغ مسعودًا جواب الخليفة سار الى الموصل يريد زنكي وسأله(٢٩١) ان يسعفه بمالٍ يؤدّيه للخليفة ويسلّمه لدُبيس زعيم المعدّيين ليذهب به اليه وبذلك يصنع اليه جميلًا. امّا زنكي فقال: اني ادفع خمسين الف دينار ذهبًا وكلّ ما تشاء من عبيد وجوارٍ وخيل ولكني لا اسلّم دبيس اصلًا لان السلطان سنجر نهاني عن تسليمه ولا يتيسّر لي ان اخالف امره. فارتاب مسعود وخرج فاقام غربي الموصل. واغلق زنكي ابواب المدينة ورحّل جميع المساكين الذين يتعذّر عليهم ان يعيشوا في الحصار وتحصّن هو في القلعة. امّا مسعود فلم يحارب الموصل بل انحدر الى بغداد وارسل يقول للخليفة: ان ناديتم باسمي اصبحتُ صديقًا وطائعًا والّا فليس لكم عندي الّا السيف.

فبرز عساكر بغداد وتعاركوا مع عساكر مسعود فكسروا وانكسروا. وجاءت الاخبار في اثناء المعركة بان سنجر قادم الى بغداد في جيوش ضخمة. فتخوّف البغداديّون ورأى الخليفة ان مسعودًا أقوى من سنجر فعاهده وأدخله وأقامه في القصر الملكيّ واتّفق الجميع على مناوشة سنجر.

وفي السنة ٥٢٦ للعرب (١١٣١م) وصل سنجر الى همذان واحتلّها ونادى فيها باسم طغرل بن محمود وكان معه. امّا مسعود قائد جيش الخليفة فتوجّه كذلك الى همذان متتبّعًا جيوش سنجر. وارسل الى الخليفة ليذهب بنفسه الى مقاتلته. ولمّا تهيّأ للرحيل وصل الخبر بان زنكي ودُبيس المعديّ قد اتّفقا وعوّلا على النزول الى بغداد. فعاد الخليفة الى داره ليستعدّ لمحاربتهما. ثم برز في الفين من جيشه وتغلّب عليهما. وانهزم زنكي الى تكريت ودُبيس الى

سواحل الفرات . وارسل زنكي القاضي ابن شهرزوري الى الخليفة يستنفره وينتظر أمره ليذهب (٢٩٢) اليه ويتولى شحنة بغداد من قبل سنجر . فقال الخليفة للقاضي : ان سنجر لا سلطنة له عندنا ولا نقبل له شحنة . واذا احبّ زنكي مصاحبتنا لزمه ان يسلّمنا دُبَيس ويمكث هو في الموصل مطمئناً والّا فاننا زاحفون اليه .

وفي الشهر الاوّل من السنة ٥٢٧ للعرب (١١٣٢م) دخل السلطان مسعود بغداد ونودي بعد الخليفة وابنه باسمه واسم سنجر واسم داود معاً : ثلاثتهم سلاطين . وزحف الخليفة المسترشد الى الموصل وحاصرها ثمانين يوماً فامتنعت عليه . وبلغه الخبر بان السلطان مسعودًا انتقض عليه فترك الموصل وكرّ عائدًا الى بغداد .

امّا جوسلين الثاني فاحتلّ قلعة شبكتان وقوّضها تماماً . وزحف ايرنيّ ملك اليونان ودوّخ حصن قسطونة وانتزعه من الاتراك صلحاً . واحتلّ حصنَين آخرين عنوةً . واحتلّ بغدوين ملك اورشليم الفرنجيّ قلعة القصير بجانب انطاكية عنوةً . وسار الى عانّ فاحتشد هناك الاتراك كالجراد ليقاتلوا الفرنج . وانهزم الفرنج في اوّل الامر حتى استدرجوا الاتراك الى البقاع ثم انحدروا وتصالحوا وتصافحوا وحملوا جميعاً على الاتراك حملة واحدة وضربوهم ضربةً قاضيةً حتى المساء . وتمّ ذلك عام ١٤٤٥ لليونان (١١٣٤م) .

وفي تلك السنة ظهر جراد كثير ببلد الرها . واستغاث المسيحيّون بالصفي برصوما[1] وارسلوا فاستحضروا صندوقةً ذخيرته . فارتحل عنهم الجراد باعجوبة ولم يؤذِ البلد كلّه اصلاً . فضمّن الروم وسخطوا وحرّضوا بيبوس مطران الفرنج ليفتح الصندوقة ويشاهد الذخيرة . لكنّ الرهبان أبوا ذلك فجعل الروم يستهزئون (٢٩٣) ويقولون : لا شيء في الصندوقة . واضطرّ الرهبان اخيرًا ان يفتحوها في بيعة الفرنج . وحدث للحال رعدٌ هائل وتلبّدت سحب سوداء في الجوّ وهبط

١) ان برصوم هذا كان من الراهبين بالطيبة الواحدة . وقد حرمه المجمع الخلقيدونيّ المسكونيّ عام ٤٥١ بحضور ستمائة وستة وثلاثين اسقفاً . وكان ابو الفرج الملطيّ مؤلف هذا التاريخ من ناصري ذلك الزعم .

بَرَد قتّال ملأ الشوارع واخذ الشعب كافّة يصرخون كيريالسون ارحمنا يا صفي الله ! امّا اليونان فانهزموا واختفوا . ولمّا انقطع البَرَد احتشد الاهالي وثابروا الصلوات ثلاثة ايّام . ولمّا شاهد العرب الحرّانيون تلك الاعجوبة سألوا ان تُنقل اليهم الذخيرة لكنّ الفرنج لم يلبّوا سؤلهم بل ردّوها الى الدير باكرام. ثمّ اقبل الملطيّون ونقلوها اليهم في الاناشيد والصلوات . ورُبط فم الجراد ولم يؤذِ الزروع اصلًا .

وفي ٢٣ ايلول احرق الرعد سبعة تيران وصبيًا . واحرق صبيًا آخر في سيسادو . وحدثت زلزلة قويّة في ارمينية اجتاحت مدينة دكودوف . وحدث في ملطية شتاء قاسٍ واثلجت ثلجًا أحمر .

وفي السنة ١٤٤٦ لليونان (١١٣٥ م) أقبل من ايطالية ريموند دي فوتيرس وزفّت اليه بنت بوهيمند صاحب انطاكية وتولّى امارتها . وفي السنة عينها مات بغدوين الثاني ملك اورشليم وزُفّت ابنتهُ الى فُلك فخلفه في مكانه .

وفي السنة عينها سيّر زنكي صاحب الموصل ابنه الى بغداد مع مفاتيح المدينة وبعض نسائهِ بمثابة ودائع . وأقسم بالطاعة فحاز الرضى والقبول . واصطلح الخليفة والسلطان سنجر كذلك وارسل اليه الخليفة تاجًا وطوقًا وحصانًا بنعلَين ذهبيّين . فنهض سنجر وقبّل حوافر الحصان وأبدى الطاعة للخليفة .

وفي تلك الفضون خرج ابن جبّارا جاتليق النساطرة (١١٣٣ — ١١٣٥) ليلًا الى الحديقة فوطئ حيّةً لدغته ومات . وذكر بعضهم ان الحيّة لم تلدغه لكن الرعب قضى على حياتهِ .

وفي السنة ذاتها ارسل الخليفة طوقًا ذهبيًا الى الامير غازي بن دنشمند (٢٩٤) دلالة على العبوديّة وصولجانًا ذهبيًا واربعة بنود سودا . وطبولًا تدقّ امامه وسمّاه الملك غازي . ولمّا وصل السفراء شاهدوه مريضًا وما عتم ان مات . فاقاموا ابنه محمّدًا خلفًا له وعادوا . وهذا الملك محمّد جدّد قيسارية قيدوقية التي كانت قد تهدّمت منذ امدٍ طويل واتخذها عاصمةً له . ثم سار الى ملطية متخوّفًا اتفاق الزعماء مع اخيه ونقل معه الهدايا للأحرار ثم انقلب فوثب الى اخيه بياجان وقتله وغزا دولتُ اخوه الثاني بلد ملطية .

وفي الشهر السابع من هذه السنة ألقى الخليفة المسترشد المنادى باسم السلطان مسعود . وحشد سبعة آلاف عسكري لمقاتلته وقد بلغه ان ليس مع السلطان الا الف وخمسمائة عسكري لا غير . لكنه بعد هذا اصبح مع الخليفة خمسة آلاف ومع مسعود خمسة عشر الفاً واصطدم الجيشان فانكسر جيش الخليفة واعتُقل الخليفة ذاته . ونُهبت الثروة التي كانت معه وهي سبعون حمل بغل ذهباً وفضةً وخمسة آلاف حمل جمل واربعمائة حمل بغل اقمشةً وثياباً وسائر لوازم الطريق في جملتها اربعون الفاً من عمامات وطرابيش واقمصة باكمامها كاملة الخياطة . ثم أمر مسعود ان ينادى في الجيش بان لكم الاموال والامتعة ولي الدماء . وانّ من قتل رجلاً قتلتهُ بدلاً منه . ولذا لم يُقتَل الا خمسة اشخاص فقط . ونادى المنادي كذلك بانّ من يبقى هنا من حزب الخليفة يُقتَل . فازدحم البغداديّون وانهزموا عراةً حفاةً بَتةً ويسرةً . وارسل السلطان مسعود يقول للخليفة ان يكتب كتاب الرضى ويصرّح للبغداديين بانه متمتّع في بحبوحةٍ من العيش لديه وانه لن يتأخر عن القدوم اليهم . غير ان البغداديين عرفوا ان الخليفة قد كتب ما كتب (٢٩٥) خوفاً . فأحدثوا ضجّة قُتل في اثنائها نحو مائة وخمسين من العامّة ثم هدئوا كيفما كان .

واخذت الزلازل تنتاب بغداد في تلك الاثناء . كلّ يوم خمس مرات او ست مرّات . فارسل السلطان سنجر سفيرًا الى السلطان مسعود في رسالتين الاولى سرّية ضمّنها سبًّا وشتماً لانه لم يفتك بالخليفة في اثناء المعمعة . والثانية مفتوحة يقول فيها : اذا طالعتَ هذه السطور يا بُنيَّ غياث الدنيا والدين مسعود فاقصد امير المؤمنين وقبّل الارض امامه واستغفره عن ذنبك . اذ لا يسعني الصبر عمّا يحدثه الله سبحانه بسبب ذلك من آيات السماء والارض : كالرياح والصواعق والبروق والزلازل الارضيّة وقد أمسى العرب تساطبة حزانى والتفت الصلوات وأغلقت ابواب المساجد في بلاد العجم وسنار جميعاً . أعِدْ اذن الخليفة باكرام الى كرسيّه دون تمثّل او تبجّح . وادفع له دُبَيس ليجري به ما شاء لانه مسبب هذه الفتن بأسرها .

ولمّا اطّلع مسعود على ذلك كلّه أمر فنشروا خياماً كبرى واقاموا الخليفة

هناك . وحملوا امامه الاعطية نحو نصف فرسخ ثم جاء به مسعود الى خيمته الملكية الكبرى واستغفره عن ذنبه . وقدّم له دُبَيس مرتقاً ومعه سيف وكفن وقال : ان هذا هو الذي اجترم كلّ هذه الشرور وهذا اسلّمه لك فمُر ان يُعاقب حسب جرمه . الّا ان الخليفة أدرك ان تلك العبارات صادرة من الفم لا من القلب فغفر لدُبَيس . ولذا اضطرّه مسعود ان يذهب الى بغداد . لكنّ الخليفة أبى الذهاب وقال : لستُ اذهب إلّم تأتِ معي. فقال مسعود اني مرسلٌ معك أمراء يخدمونك لتذهب بكلّ اجلال وتجلس في دارك. لكنّ الخليفة لم يرضَ لخوفه من ان يضعوا له كميناً في الطريق ويبطشوا به سرًّا اذ لا يسعهم (٢٩٦) ان يقتلوا جهرًا إمام دينهم.

واعتزم مسعود ان يتوجّه الى اذربيجان ليقاتل داود ابن اخيه وتوجّه معه الخليفة كذلك . ثم ارسل سنجر وفودًا الى مسعود من مراغة وهو عند بابها وحرّضه ان يردّ الخليفة الى بغداد دون تريّث . وكان في جملة اولئك الوفود سبعة عشر من الاسمعيليّين . ويوم الخميس وقت الظهيرة ١٦ الشهر الحادي عشر عام ٥٢٩ للعرب (١١٣٤م) وثبوا اليه وهو يطالع كتاب القرآن في الخيمة وفي ايديهم السكاكين واجهزوا عليه وعلى ثلاثة من حشمه. فركب مسعود واحدق بالخيام وفتك بالقتلة . قيل ان سنجر لم يكن عنده علم بالاسمعيليّين لكنّ الحقيقة هي انه هو الذي ارسلهم دون علم مسعود .

بعد المسترشد الراشد ابنه

تولّى سنةً واحدةً . ذلك انه على اثر قتل ابيه المسترشد ارسل السلطان سنجر الى شحنة بغداد يأمره ان يجتمع الاقطاب والقضاة ويبايعوه بالخلافة ويجلسوه مكان أبيه . فنفّذوا امره . وفي تلك الاثناء غدر دُبيس بن صدقة بالسلطان مسعود فكتب رسالة الى زنكي يقول : اني مترقب الفرصة لاغادر هذا واتوجّه اليك واحشد من الجنود المعدّين ما يقابل رمال شاطئ البحر ثم نتّفق معاً ونفعل مع مسعود فعلاً يخلّد ذكره الى الاجيال التالية . وقد وقعت تلك الرسالة بيد من أوصلها الى مسعود . ولمّا اجتمع الاقطاب لديه يوماً

وسقاهم ماء السكّر كالعادة ونهضوا ليودّعوه اشار الى دُبيس ان يتربّص وقال له ان لي معك كلمةً سرّية . فوقف ونهض مسعود ودخل الخيمة الداخليّة ودفع رسالةً ما الى عبدٍ ارمنيّ حاملٍ سيفاً وقال له : امضِ فادفعها الى دُبيس وعندما يبدأ قراءتها اضربه من ورائه (٢٩٧) وافلق هامته. فخرج العبد وشاهد دُبيس يضرب باصبعه في الارض ويقول : الموت خيرٌ لي من حياةٍ مضطربةٍ . فقدّم له الرسالة فاخذها وفتحها وجعل يقرأها ففاجأه العبد بضربةٍ في رقبته من ورائه وحزّ هامته . وهكذا انتهت حياة هذا الرجل المراوغ المصارع . وتمّ قتلهُ بعد خمسة وثلاثين يوماً مرّت على قتل الخليفة المسترشد خصمه .

وفي السنة ١٤٤٧ لليونان (١١٣٦ م) وهي السنة ٥٣٠ للعرب أخلف ميخائيل الارمني بوعده للفرنج اذ كان قد سبق فباعهم ايامّ بلك قلعة جرجر وخرج عنها فانقلب وانحرف عنهم وجعل يغزو قراهم . فادركه الاتراك يوماً في قرية كور زيزونا على ساحل الفرات واحدقوا به من كلّ صوب ولم يستطع ان يفلت منهم . فألقى بذاته من علوّ الصخر الى النهر وكان متسلّحاً بدروع حديديّ فغرق في الماء. ثم طفا وتلمّس الى جهة النهر الثانية ولم يغرق ولم يُلقِ من يده القوس على ما قيل . وبعد هذا تخلّى لجوسلين الثاني عن مدينة جرجر وأخذ بدلًا منها موضعاً يقال له سَغرس . ثم اشتراها باسيل اخو جاتليق الارمن من جوسلين . فحشد ميخائيل العسكر وسار الى الكيسوم وغزا ضاحيتها فترصّد له الفرنج وفتكوا به . ثم توجّه دغا باسيل يريد لاون في قيليقية وصاهره . وحشد بعض الارمن وانقلب ليناوش الفرنج في كفر زمان فتلف الكثير من اصحابه .

وفي كانون الثاني من هذه السنة اشتدّ البرد خصوصاً في آمد ففرّت الى المدن صنوف الطيور الجبليّة كالحجل وما شاكله وحيوان القفر كالغزال وغيره . وأمر الحاكم جميع الاهالي ان لا يؤذوها. فجعلوا يقدّمون لها القوت حتى شهر نيسان ثم سرّحوها. قيل ان تلك الطيور والحيوانات جعلت منذ الخريف تدخل المغاور كأنّها سبقت فشعرت بحدوث البرد منذئذٍ ممّا يدلّ على (٢٩٨) انه تعالى قد

غرس في طبائع الحيوان معرفة تقلّبات الفصول قبل حدوثها.

وفي هذه السنة سيّر السلطان مسعود الى الخليفة الراشد سفيرًا يطالبه بثلاثمائة الف دينار سبق فوعده بها والده المسترشد يوم كان عنده . وثلاثمائة الف دينار غيرها يجب ان يجمعها من البغداديين مساعدةً له ويضمّ اليها حقوق الخلافة الجديدة كالعادة . فاجتمع الخليفة باقطابه وشاورهم في الأمر وانتهوا بان يحشد الخليفة جيوشه وينازل مسعودًا. فارتضى الخليفة وفتح خزانته واخرج ذهبًا وافرًا واستخدم عساكر كثيرة . ثم ارسل يقول للسفير : انّا وعد ابي ما وعد من الذهب لاجل نجاته ولكنكم قتلتموه . بناء عليه لا بدّ لي من الانتقام وليس لكم عندي الّا السيف . وما ان سمع السفير هذا الكلام حتى ترك الخليفة وانقلب عائدًا . وجعل الخليفة يدأب في بنيان الأسوار وترميم الأبراج . واقبل يومئذٍ زنكي صاحب الموصل لينجده . ووصل كذلك داود ابن اخي السلطان مسعود . وحاول الخليفة ان يلغي المناداة باسمه وينادي باسم داود لكن زنكي أبى وقال:لا تتحرّشوا بمسعود بل قولوا لداود ان يذهب ويقابل عنه فاذا قاتل نادينا باسمه . غير ان الخليفة رفض قول زنكي وألغى اسم مسعود ونادى باسم داود سلطاناً . فارسل مسعود الى الخليفة يقول : قد اصبحنا في غنىً عنك وأقمنا خليفةً موافقاً لنا من سلالة عليّ فابحث عن مكان آخر واخرج وامضِ حيث شئت .

اضطرب الخليفة وأرسل الى بهروز امير تكريت وأخبره انه متوجه اليه ليتحصّن في قلعته . فكتب له بهروز : انا عبدٌ لمسعود ولا سبيل لي ان اخالفه اذا طلبك مني . فاضطرّ الخليفة ان يُعدّ العدّة لمحاربة مسعود وبعث بخيامه الى ضواحي بغداد وابقى عنده زنكي وسائر الاقطاب . ووصل اذ ذاك (٢٩٩) الخبر بان مسعودًا قادمٌ في جيوش كثيفة. وخاطب زنكي الاقطاب فقال : عرفتم ما جرى للمسترشد بسبب انتقاض اقطابه فلم يستفد هو ولا هم شيئاً . فقولوا لي إذن : هل نيّتكم مستقيمة ؟ وهل انتم مستعدّون بطيبة خاطركم لمحاربة السلطان مسعود ؟ اني اريد ان اعرف ذلك والّا فليرجع كلٌّ الى بلده وليُضرب عن التصادم والنهب والحرب وليكتف كلٌّ بما له .

انحم الاقطابَ خطابُ زنكي ولاذوا بالصمت وجعل كلّ واحد يحدّق في صاحبه وتحقّق لزنكي خداعهم وأخبر الخليفة . وبعد هذا نهضوا جميعاً ودخلوا المدينة ونصبوا خيامهم داخل السور وتركهم زنكي وشأنهم وعاد الى الموصل . ولم يَرَ الخليفة الّا ان ينهزم معه اذ تعذّر عليه ان يثبّطهم عن الحرب . ودخل اذ ذاك السلطان مسعود بغداد وأحسن الى اهاليها ونهى ابتزاز ايّ بيت كان . ثم اجتمع بكلّ الاقطاب وعرض عليهم صكّ الخليفة الراشد مكتوباً بخطّ يده وفيه يصرّح قائلًا : اني يومَ احشد الجنود واخرج الى مبارزة امير من امراء السلطان مسعود اصبح خليعاً عن الخلافة . وكان حاضراً في حملة اولئك الاقطاب ثلاثة شهود ممّن امضوا ذلك الصكّ بتواقيعهم وأيّدوه بشهادتهم . وبناء عليه خلعوا الراشد شرعاً وذكروا من الجملة شكاوى اخرى بجملتها انه خرق حرمة جواري ابيه وعاقر الخمرة واعرض عن الصلوات ولعب بالكعاب وتمادى في الظلم والغدر وسفك دماء زكيّة .

(له صلة)